على أن أهمية هذه المعرفة الحديثية العميقة لدى محمود، إنما تكمن، في سياق هذا البحث، في صلتها الوثيقة بمنهجه في دراسة الأدب القديم، وتحقيق كتبه، إذ كان فحص أسانيد الأخبار والآثار والأشعار، على طريقة علماء الجرح والتعديل، من الأركان الرئيسة التي ينتحي عليها منهجه النقدي.

في المدرسة

كان الإحساس بأهمية «الكلمة» هو أكثر ما يشغل محمود شاكر في سني طفولته، قبل أن يلحقه أبوه بالمدرسة؛ فقد أدرك أول ما أدرك أن «الكلمة» هي وحدها التي تنقل إليه الأشياء التي يراها بعينيه، وتنقل إليه بعض علائقها التي تربط بينها، والتي لا يطيق أن يراها بعينيه، وكان هذا إدراكاً غامضاً، لا تستطيع طفولته في ذلك الوقت أن تتبيّنه بدقة، «... ولكني لا أزال أذكر لمحاً كالوميض يلوح ويخفى، من عهد أول طفولتي، إذ كنت أسمع من كان في بيتنا حين يتحدثون بطلاقة وذلاقة لا يطيق مثلها لسانٌ غض قريب عهدٍ بصمت الطفولة الطويلة، وبعجزها المتلهف إلى الإبانة، وبنزاعها الدائب إلى محاكاة الكبار»[1].

ومن الطبيعي أن يتعمق هذا الإحساس لديه، بدخوله المدرسة، وبتلقيه مبادئ التعليم، فكان لهذا الإحساس أثرٌ بارزٌ في مسيرته التعليمية، بل في سيرة حياته كلها فيما بعد، حتى يمكن القول بأن هذه الحياة التي عاشها محمود ليست سوى قصته مع «الكلمة».

ومن هنا كان بغض محمود لصوت «الجرس»، منذ أول ساعةٍ دخل فيها مدرسة «أم عباس» الابتدائية بالقاهرة سنة ١٩١٦م[2]، وهو في السابعة من عمره، حتى كاد يكره المدرسة بسببه، وهو يصفه بأنه: «صوت مصلصلٌ، مؤذٍ، جافٍ، أبكمُ أعجمُ لا معنى له... رنينٌ منكرٌ سرى بالفزع في نفسي، وردّد الوجيبَ الوخّاز في قلبي، كدتُ أكره المدرسة من يومئذٍ، من جرّاء هذا الجرس الأعجميّ الخبيث»[3].

ويذكر محمود أن أول درس سمعه هو درس اللغة الإنجليزية، ففتن بحروفها، وغلبه

(١) محمد محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص: ٥٥٥.
(٢) انظر: محمد رشاد سالم (وأصحابه)، دراسات عربية وإسلامية، ص: ١٣.
(٣) محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص: ٥٥٦.

الاهتمام بها، وجعل يسارع في حفظها، «... وكأن حبَّ الجديد الذي لم آلفه، قد بزَّ حسن الانتباه إلى القديم الذي ألفته منذ ولدتُ، فقلّ انتباهي إلى لغتي العربية، ومضت الأيام ففتر انتباهي إليها، بل لعلي استثقلتها، وكدتُ أنفر منها، وكذلك صرتُ في العربية ضعيفاً جداً، لا أكاد أجتاز امتحانها إلا على عسرٍ، وعلى شفى»(١).

فلما كانت السنة الرابعة رسب محمود في امتحان «الشهادة الابتدائية»، ولا ملحق لها يومئذٍ، فأعاد السنة على مضضٍ؛ لأنه كان متمكناً من الرياضيات خاصة، ومن سائر العلوم عامة، ما عدا العربية، ولعل هذه السنة المعادة كانت من أجدى السنوات عليه، إذ امتلأ قلبه مللاً من الدروس المكررة، واتسع الوقت، وصار حراً يذهب حيث يذهب إخوته الكبار إلى الأزهر، حيث يسمع خطب الثوار، ويدخل «رواق السنارية» وغيره، وفي هذا الرواق سمع أول ما سمع مطارحة الشعر، وهو لا يدري ما الشعر إلا قليلاً، وكان مما سمعه في هذه الفترة، فتأثر به، وأحبَّه، شعر أبي الطيب المتنبي، ولذلك كان حريصاً على أن يحصل على ديوانه، وتمّ له ذلك عن طريق أحد أبناء خاله ممن كان يومئذٍ مشتغلاً بالشعر والأدب، فأعطاه ديوان المتنبي بشرح اليازجي، وكان فيما يقول محمود، مشكولاً جيّدَ الورق، «فلم أكدْ أظفر به حتى جعلته وردي، في ليلي وفي نهاري، حتى حفظته يومئذٍ، وكأنَّ عيناً دفينة في أعماق نفسي قد تفجّرت من تحت أطباق الجمود الجاثم، وطفقتْ أنغام الشعر العربي تتردد في جوانحي، وكأني لم أجهلها قطُّ، وعادت «الكلمة» العربية إلى مكانها من نفسي، وإنْ لم أجدْها زحزحتْ شيئاً من الكلمة الإنجليزية»(٢).

وفي سنة ١٩٢١م يدخل محمود المدرسة الخديوية الثانوية(٣)، ويظل هذا التنازع بين حب العربية وحبّ الإنجليزية قائماً في نفسه لا يفارقه، على أنه في هذه المرحلة سرعان ما أحبَّ أيضاً حباً شديداً مادة «الرياضيات»، فأعطاها كثيراً من وقته، حتى لم يكن له هَمٌّ سوى اتقانها والتوسع فيها والتزوّد منها، وإن كان ذلك لم يصرفه عن قراءة تراث العربية،

---

(١) محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص: ٥٥٦-٥٥٧.

(٢) نفسه، ص: ٥٥٧.

(٣) انظر: محمد رشاد سالم (وأصحابه)، دراسات عربية وإسلامية، ص: ١٣.

وعن الشعر خاصة في العربية وغير العربية ، ولأجل «الرياضيات» كان اختياره لما كان يُسمّى «القسم العلمي» ، ونفوره من «القسم الأدبي» ، وبقي حبُّه للرياضات يزداد يوماً بعد يوم ، حتى نال «شهادة البكالوريا» سنة ١٩٢٥م(١) .

ولكن الذي أدركه محمود وهو في حومة هذا الصراع الغامض في أحناء نفسه ، على حدّ تعبيره ، أن اللغة العربية كانت تنال من قلة اهتمام الطلبة بها ، واستهزائهم بدرسها ، ما يفزع المتأمل ، وكان هذا الإدراك قد نفذ في أعماق نفسه يرجّها رجاً شديداً ، وأحاطت به الحيرة لا يعرف أين يذهب ، وكانت الجامعة المصرية قد أنشئت في تلك السنة ، فاختار له أبوه ، ما اختاره اتجاهه إلى القسم العلمي ، ولكنه سرعان ما انتبه فجأة إلى نفسه ، فأبى ما اختاره اتجاهه العلمي ، وما اختاره له أبوه ، وأبى إلا أن يلتحق بكلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، خلافاً لزملائه في الدراسة الثانوية ، وهو يصف هذه اللحظة الحاسمة في حياته ، فيقول : «لقد انفتحتْ لي الأبواب المغلقة على إحساسي القديم بخطر «الكلمة» فإذا هي التي تفتح بصيرتي ، فترى وتبصر ما لا يدركه البصر ، وما لا يقع عليه الحس وعلمني كتاب «سيبويه» يومئذ أن «اللغة» هي الوجهُ الآخر للرياضيات العليا ، ومن يومئذٍ صارت «الكلمة» عندي هي الحياة نفسها ، هي عقلي ، هي فكري ، هي سرّ وجودي ووجود ما حولي»(٢) .

ومن المهمّ أن أشير هاهنا إلى أن وعي محمود بأهمية «الكلمة» لم يدفعه إلى العناية باللغة العربية وأدبها حسبُ ، وإنما كان يحضه أيضاً على مواصلة تعلم اللغة الإنجليزية ، وغيرها من اللغات الأجنبية .

ويرجع ذلك إلى مفهوم «الكلمة» عنده ، فهي «البيان» الذي هو نعمة الله الكبرى على عباده ، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ، فمن استهان بها ، فقد استهان بأجلّ نِعَم الله على خلقه ، وبالنعمة الكبرى التي أخرجته من حد البهيمة العجماء ، إلى حد الإنسان الناطق ، كما يرجع كذلك إلى إيمانه بأن المرء لا يستطيع أن يعرف حقيقة عدوّه إلا بعد تمام معرفته لحقيقة لغته(٣) .

---

(١) انظر : محمود محمد شاكر ، أباطيل وأسمار ، ص : ٥٥٨ .

(٢) نفسه ، ص : ٥٥٩ .

(٣) نفسه ، ص : ٥٦١-٥٦٢ .

وقد استطاع محمود بما تلقاه من دروس الإنجليزية في المرحلة الثانوية، وبمحاولاته الشخصية الدائبة في تعلمها، أن يتقنها اتقاناً تاماً، قراءةً وكتابةً ومحادثةً وترجمةً[1]، حتى كان يحسّ من نفسه القدرة على التلعّب بتاريخ الشعر الإنجليزي، كما قال مرةً لأحمد تيمور، في معرض تعليقه على مقالة المستشرق الإنجليزي مرجوليوث «نشأة الشعر العربي»[2]: «... أنا لا شكَ أعرف من الإنجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافاً مضاعفةً، بل ما فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر؛ وأستطيع أن أتلعّب بنشأة الشعر الإنجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعّباً هو أفضل في العقل من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي»[3].

وكثيراً ما كان ينتقد ما يقع بين يديه من مترجماتٍ، مما يدل على تمكنه، وسعة اطلاعه، ومن ذلك قوله، على سبيل التمثيل: «فكتب خمس مقالاتٍ أو نحوها (يقصد لويس عوض) عن أدباء الإنجليز كأسكار وايلد، واليوت، وشو، وهي على ضعفها وعلى سقم الترجمة فيها، وعلى ما فيها من الخطف الجريء من الكتب، كانت لا تعدّ شيئاً يذكر»[4]، وقوله أيضاً، معلقًا على نصٍّ مترجمٍ من كتاب «العالم والغرب» لآرنولد توينبي: «ويؤسفني أن الأصل الإنجليزي لم يقع في يدي حتى أترجمه، ولكن هذه الترجمة على ما فيها، مفهومة المعنى»[5].

وقد ترجم محمود عن الإنجليزية مجموعة من القصائد، ومن ذلك قصيدة «صاحب المسحاة»[6] لأدوين ماركهام، «والقارئ يناجي شاعره»[7] لريتشارد لاغالين، و«رحمة الله عليها» لأوسكار وايلد[8]، وغيرها.

---

(١) من مقابلة مع إحسان عبّاس.

(٢) نشرت هذه المقالة في عدد يوليو سنة ١٩٢٥م من «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية» Journal, of The Royal Asiatic Society, London. انظر: عبدالرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص: ٨٧.

(٣) محمود محمد شاكر، المتنبي، دار المدني بجدة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٧م، ص: ١٢.

(٤) محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص: ١٤٢.

(٥) نفسه، ص: ٢٢٩.

(٦) انظر: محمود محمد شاكر، صاحب المسحاة: كتبها الشاعر الأمريكي أدوين ماركهام، المقتطف، المجلد ٨٤، ابريل ١٩٣٤، ص: ٤٩٤-٤٩٥.

(٧) انظر: محمود محمد شاكر، القارئ يناجي شاعره، لريتشارد لاغالين، المقتطف، المجلد ٨٥، نوفمبر ١٩٣٤، ص: ٣٥٥.

(٨) انظر: محمود محمد شاكر، رحمة الله عليه، لأوسكار وايلد، المقتطف، المجلد ٨٥، ديسمبر ١٩٣٤، ص: ٥٠٤.

كما حرص محمود على تعلم اللغة الألمانية ، وقد ذكر أنه كان قد تعلمها في صدر شبابه من صديق له سويسري (ألماني) ، كان يعلمه اللغة العربية ، هو الدكتور روبرت ران ، ومما قرأه معاً من الكتب الألمانية «الديوان الشرقي» لجوته[1] ، أما اللغة الفرنسية ، فكان يتقن قراءتها فقط[2] .

دروس المرصفي

ولعل أبرز أديب كان له أعظم الأثر في تعميق إحساس محمود ، أثناء دراسته الثانوية ، بخطر «اللغة» ، وفي عشقه العربية وآدابها ، على الخصوص ، عشقاً ملك عليه قلبه ولبَّه ؛ مما جعله يؤثر متابعة دراسته الجامعية في قسم اللغة العربية ، مع أنه يحمل بكالوريا القسم العلمي الثانوي ، وهو التحوّل الذي كان بَدْءَ تحول حياته كلها تحولاً تاماً ، هو : سيّد بن علي المرصفي .

ومما لا شك فيه أن المرصفي ، في مطلع هذا القرن ، كان من ألمع الأساتذة الذين تولّوا تدريس الأدب العربي القديم بالجامع الأزهر ، وقد كانت حلقة درسه ، كما يصوّرها أحد تلامذته ، مهرجاناً يضم الأدباء والشعراء على اختلاف بيئاتهم وألوانهم ، فلم تكن مقصورة على طلبة الأزهر حسب ، وإنما كانت ندوةً يحرص على حضورها عشاق الأدب والشعر جميعاً ، وقد بلغت الصلة بينه وبين تلامذته وروّاد دورسه حداً غريباً ، فهم لا يقنعون بما انتفعوا به في درسهم ، ولكنه يصحبونه إلى منزله ، فلا يزالون في حديثٍ موصولٍ ، ودراسةٍ طريفةٍ ممتعةٍ[3] .

ومن هؤلاء الذين درّسهم المرصفيُّ ، فكان له أكبر الفضل في نبوغهم الأدبي ، وذلك على سبيل التمثيل : أحمد حسن الزيات ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد ، وطه حسين ، وعبد العزيز البشري ، وزكي مبارك ، وأحمد محمد شاكر ،

---

(1) انظر : محمود محمد شاكر ، نمطٌ صعبٌ ونمطٌ مخيفٌ ، ط1 ، دار المدني بجدة ، مطبعة المدني بمصر ، 1996م ، ص : 35 .

(2) انظر : محمود محمد شاكر ، المتنبي ليتني ما عرفته (1) ، الثقافة المصرية ، العدد 60 ، 1978م ، ص : 10 .

(3) انظر : محمد كامل الفقي ، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة ، ص : 403-404 .

وحسن السندوبي، وعبد الرحمن البرقوقي، وكامل الكيلاني، وعلي الجارم، وغيرهم[(١)].

يقول طه حسين واصفاً المرصفي وتمكنه من علوم العربية وآدابها: «أستاذنا الجليل سيد بن علي المرصفي أصح من عرفت بمصر فقهاً في اللغة، وأسلمهم ذوقاً في النقد، وأصدقهم رأياً في الأدب، وأكثرهم رواية للشعر، ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام»[(٢)].

أما محمود شاكر، فقد بدأت صلته بشيخه المرصفي في سنة ١٩٢٢م، وذلك بحضور دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برقوق، ثم أخذت تتوثّق مع مرور الأيام، فصار يختلف إلى بيته يقرأ عليه بعض أصول كتب الأدب والشعر، ومما قرأه عليه في بيته، وهو لا يزال طالباً في الثانوية، كتاب «الكامل» لأبي العباس المبرّد، وحماسة أبي تمام، وشيئاً من أمالي أبي علي القالي، وبعض أشعار الهذليين، واستمرت صلته به إلى أن توفي في ١٠ فبراير سنة ١٩٣١[(٣)].

تحدّث محمود كثيراً عن أثر المرصفي في نفسه، وكان ينعته دائماً بقوله «إمام العربية»[(٤)]؛ لتمكّنه منها، وحرصه على سلامتها، وقدرته الفائقة على الغوص في أعماقها، وتذوّق بيانها.

فإلى هذا الشيخ يرجع الفضل، في هذه الفترة، في تعميق معرفته بالشعر الجاهلي، وفي تذوّقه له، حتى بدأ يجد فيه شيئاً يختلف اختلافاً ظاهراً عما في الشعر الأموي والشعر العباسي، وإن كان من الصعب، يومئذٍ، أن يعبّر عن هذا الشيء تعبيراً واضحاً.

فقد كان محمود، قبل لقائه المرصفي، يعرف «المعلّقات العشر الجاهلية» ويحفظها، كما هو شأن أكثر من انصرف بهمته إلى الأدب، إلا أن حفظه إياها، ومعرفته بها وبأصحابها، وبمعانيها وبمعاني غريب ألفاظها، لم يزد على أن يكون زيادةً في ثروة معرفته بالعربية،

---

(١) انظر: سيف النصر الطلخاوي، شيخ أدباء مصر سيد بن علي المرصفي: حياته ومنهجه في دراسة النص الأدبي ونقده، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٤، ص: ٢٢٨.

(٢) طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ط٦، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص: ٥.

(٣) انظر: محمد رشاد سالم (وأصحابه)، دراسات عربية وإسلامية، ص: ١٣.

(٤) محمود محمد شاكر، على حد منكب، الرسالة، العدد ١٩٠، ١١ ديسمبر ١٩٥٠م، ص: ١٣٨٧، ومحمود محمد شاكر، كانت الجامعة هي طه حسين، الكاتب، العدد ١٨٦، مارس ١٩٧٥م، ص: ٢٨.

وبشعرها وشعرائها ، ولكن قراءته على الشيخ ، كما يقول ، نقلته من هذا الطور إلى طور آخر ، أوغل به في الحفاوة بالشعر الجاهلي ، وفي الحرص على قراءته وتتبع قواصيه ونوادره ، وقد أوقفته على شيء مهمٍّ جداً ، شغله واستولى على نفسه « . . . فعدتُ أدراجي أقرأ دواوين الشعراء الجاهليين ، ديواناً ديواناً ، شاعراً شاعراً ، ومن لم أجد له منهم ديواناً جمعت لنفسي ما بقي من شعره وقرأت شعره مجتمعاً ، وهذا المسلك في ترتيب القراءة ، جعلني أجد في الشعر الجاهلي شيئاً لم أكن أجده من قبل وأنا أقرأ الشعر الجاهلي ، متفرقاً على غير نظام ، مبعثراً بين الشعراء المختلفين ، أو وأنا أحفظ هذه «المعلقات العشر الجاهلية» ، وأدارسها وأتتبع معاني ألفاظها ، مع اختلاف معانيها وأغراضها»(١) .

وهذا الذي وجده محمود يومئذٍ في الشعر الجاهلي كان «ترجيعاً خفياً غامضاً ، كأنه حفيف نسيم تسمع حِسَّه وهو يتخلل أعواد نباتٍ عميم متكاثفٍ ، أو رنين صوت شجيّ ينتهي إليك من بعيد في سكون ليلٍ داجٍ ، وأنت محفوف بفضاء متباعد الأطراف ، وكان هذا الترجيع الذي آنسته مشتركاً بين شعراء الجاهلية الذين قرأت شعرهم ، ثم يمتاز شاعرٌ من شاعرٍ بجرسٍ ونغمةٍ وشمائل تتهادى فيها ألفاظه ، ثم يختلف شعر كل شاعرٍ منهم في قصيدةٍ قصيدةٍ من شعره ، وبدندنةٍ تعلو وتخفت تبعاً لحركة وجدانه مع كل غرضٍ من أغراضه في هذا الشعر»(٢) .

ويذكر محمود أن طريقة شيخه المرصفي في قراءة الشعر الجاهلي هي التي كانت وراء تنبهه إلى أول الطريق في تذوّق هذا الشعر ، ومعرفة طبيعته وأسراره ، فقد كان للشيخ «عند قراءة الشعر وقفاتٌ ، يقف على الكلمة ، أو على البيت ، أو على الأبيات ، يعيدها ويرددها ، ويشير بيديه يمنةً ويسرةً ، ويرفع من قامته ماداً ذراعيه ، ملوحاً بهما يهم أن يطير ، وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما ، تراه كأنه يجد للكلمات في فمه من اللذة والنشوة والحلاوة ، يفوق كل تصور . كنت أنصت وأنظر إليه لا يفارقه نظري ، ويأخذني عند ذلك ما

---

(١) محمود محمد شاكر ، المتنبي ، ص : ٨ ، ومحمود محمد شاكر ، المتنبي ليتني ما عرفته (٣) ، العدد ٦٣ ، ص : ١٢-١٣ .

(٢) محمود محمد شاكر ، المتنبي ، ص : ١١ .

يأخذني وأطيل النظر إليه كالمبهوت ، لا تكاد عيني تطرف ، فإذا كفّ عن الإنشاد والترنم أقبل يشرح ويبين ، ولكن شرحه وتبيينه لهذا الذي حركه كل هذا التحريك ، كان دون ما أحسه وأفهمه ويتغلغل في أقاصي نفسي من هيئته وملامحه وهو يترنم بالشعر أو يردد»(١) .

ويبرز أثر هذا التذوق للشعر الجاهلي جلياً عندما يلتحق محمود سنة ١٩٢٦م بقسم اللغة العربية في الجامعة المصرية ، ويبدأ بالاستماع لمحاضرات أستاذه طه حسين «في الشعر الجاهلي» ، التي كان يلقيها على طلبة القسم ، والتي يذهب فيها إلى أن الشعر الجاهلي منحول ، وضعه الرواة في العصر الإسلامي ، حيث يقف محمود موقف الرافض لرأي أستاذه ، ومنهجه في دراسة الشعر الجاهلي ، القائم على «الشك» ، إذ كانت قراءته المتذوقة لهذا الشعر قد كشفت له عن غير قليل من سماته الخاصة ، التي تميزه عن سواه مما تلاه من الشعر الإسلامي ، كما سأوضح ذلك بعد قليل .

تلمذته للرافعيّ

وفي أثناء هذه المرحلة ، مرحلة الدراسة الثانوية ، أيضاً ، بدأت صلة محمود شاكر بمصطفى صادق الرافعي الذي ترك آثاراً واضحة في حياته الأدبية والفكرية ، وفي علاقاته مع أدباء عصره ، وربما ترجع هذه العلاقة تحديداً إلى سنة ١٩٢٣م ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، إذ كان قد قرأ له بعض كتبه فأحب أن يراسله ابتغاء الصلة وطلباً للعلم ، ثم توطدت بينهما صحبةٌ عميقةٌ ظلّت إلى أن توفي الرافعيُّ سنة ١٩٣٧م .

وقد أومأ محمود إلى هذه العلاقة التي كانت تربطه بالرافعي ، علاقة التلميذ بأستاذه ، غير مرة ، ومن ذلك قوله : «كانت سنة (١٣٤١هـ-١٩٢٣م) ، فقرأت للرافعي كتابه «المساكين» ، فنازعتني نفسي إلى مراسلته لأصل ما بيني وبينه ، فكتب إليّ كتاباً رقيقاً كنور الفجر ، ثم مضت الأيام ولقيت رجلاً كهلاً قد اشتعل الشيب في رأسه ، خفيفاً قد أخذت منه الأيام ، صامتاً قد أسكته الفكر ، ثم قيل لي هذا الرافعي ، فيوم ذاك عرفته ، فإذا هذا الكهل شبابٌ مشتعلٌ يتوهّج ، وإذا هذا الخفيف قوةٌ مستصعبةٌ مستمرةٌ لا تلين ، وإذا هذا

---

(١) محمود محمد شاكر ، المتنبي ليتني ما عرفته (٣) ، ص : ١٣ .

الصامت لسانٌ عربيٌ مبينٌ ، ثم هو بعد صديقٌ أنت في صداقته في مثل الروضة التي تفيء إلى ظلها(...) فتمسح عن قلبك الحزن بالرضى والفرح ، ما لا تمسح صداقة الناس ممن ترى وتعرف»[1] ، وقوله أيضاً : «عرفت الرافعي معرفة الرأي أول ما عرفته ، ثم عرفته معرفة الصحبة فيما بعد ، وعرضت هذا على ذاك فيما بيني وبين نفسي ، فلم أجد إلا خيراً مما كنت أرى ، وتبدّت لي إنسانية هذا الرجل كأنها نغمةٌ تجاوب أختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبني وأحبه ؛ لأن القلب هو الذي كان يعمل بيني وبينه ، وكان في أدبه مسُّ هذا القلب»[2] .

وفي رسائل الرافعي إلى بعض أصدقائه كثيراً ما نجده يذكر محموداً باعتباره واحداً من تلاميذه وأنصاره ، وهو ، في الغالب لا يسمّيه باسمه ، وإنما يدعوه «ابن الشيخ شاكر» ، ولعل ذلك يعود إلى حداثة سنه من ناحيةٍ ، وشهرة أبيه الشيخ محمد شاكر من ناحية أخرى .

يقول الرافعي في إحدى رسائله سنة ١٩٣١م : «وكتب إليَّ ابنُ الشيخ شاكر ، وهو من أكبر المخلصين لنا ، أن العقاد تناقض في هذا الكتاب (يعني كتاب العقاد «ابن الرومي حياته من شعره») تناقضاً فاحشاً ، وأنه لم يصحح ما نبهته إليه في «السفّود»[3] ، بل تركه على غلطه»[4] ، ويقول أيضاً في رسالة أخرى سنة ١٩٣٢م : «أظنك قرأت شرح المرصفي على «الكامل» (...) فإنَّ ابن الشيخ شاكر أهداه إليّ وقرأت فيه بضع صفحات (...) وابن الشيخ شاكر هذا من المخلصين لنا كل الإخلاص ، والمتعصبين كل التعصب ، أكثر الله من أمثاله»[5] .

لقد وجد محمود في الرافعي ، ولا سيما في هذه الفترة الباكرة من عمره ، ذلك الأديب

---

(١) محمود محمد شاكر ، «وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي ، المقتطف ، المجلد ٩٠ ، فبراير ١٩٣٧م ، ص : ٢٥١ .

(٢) محمد سعيد العريان ، حياة الرافعي ، ط٣ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٥م ، ص : ٨ (فاتحة الكتاب ، بقلم محمود محمد شاكر) .

(٣) انظر : مصطفى صادق الرافعي ، على السفود ، دار العصور بمصر ، ١٩٣٠م ، ص : ٥٠-٥٣ ، وعباس محمود العقاد ، ابن الرومي : حياته من شعره ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ١٩٨٢م ، ص : ١١٥-١١٦ .

(٤) محمود أبورية ، رسائل الرافعي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٠م ، ص : ٢١٠ .

(٥) نفسه ، ص : ٢٣٦-٢٣٧ .

الجديد بالأستاذية ، فآثره دون غيره من أدباء عصره ومفكريه ، فراح يخبّ في دربه ، ويتابعه في غير قليل مما يذهب إليه من الآراء والأحكام .

ومن المعروف أن الرافعي ، في بُداءة هذا القرن ، كان من أبرز الأدباء المنافحين عن الثقافة العربية الإسلامية التي كانت تتعرض لهجوم عنيفٍ من قبل أولئك الأدباء الذين كانوا على اتصال وثيق بالثقافة الأوروبية : بشقيها اللاتيني والسكسوني .

وقد كان يرى أن الهجوم على اللغة العربية وتراثها الأدبي لا يستهدف إلا الهجوم على الإسلام نفسه ؛ لأنّ إضعاف العربية في نفوس أبنائها أو تشويهها من شأنه أن يباعد الناس عن القرآن والحديث النبوي اللذين هما عمود الإسلام ، وعلى هذا الأساس من الربط بين الدين واللغة كانت معاركة مع بعض أنصار «الجديد» ممن تأثروا الثقافة الأوروبية ؛ لأن اللغة العربية ، فيما يقول الرافعي ، أساس الأمة الإسلامية ، «فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتاً متيناً لا يزعزعه شيء ، ولا يثلمه شيء»(1) ، وفي رأيه أن نهضة الشرق العربي «لا تعتبر قائمة على أساس وطيدٍ ، إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان الدين الإسلامي ، واللغة العربية»(2) .

ولعل في رسالة محمود التي بعثها إلى الرافعي يطلب منه فيها أن يرد على من زعم من الكتّاب(3) أن قول العرب : «القتل أنفى للقتل» أبلغ من قول الله ، جل وعزّ ، ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ [البقرة : ١٧٩] ما يدل دلالةً جليةً على هذه الأستاذية التي كان يراها له ، يقول محمود : «غلي الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلجّ في تفضيل قول العرب : «القتل أنفى للقتل» على قول الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ، فذكرت هذه الآية : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ [الأنعام : ١٢٠] ثم هممت بالكتابة ، فاعترضني ذكرك ، ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً ، وأعلم أنه لا عذر لك ، أقولها مخلصاً ، يمليها علي الحق الذي أعلم إيمانك به ، وتفانيك في إقراره والمدافعة عنه

---

(1) مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج٣ ، ص : ٣٩٧-٣٩٨ .

(2) نفسه ، ص : ١٧٢ .

(3) هو حسن القاياتي ، وقد نشر ذلك في «كوكب الشرق» في عدد يوم الجمعة ٢٧ أكتوبر ١٩٣١م .

والذود عن آياته، ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همّها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني»(١).

وكان الرافعي حريصاً جداً على تلميذه، وكثيراً ما كان يكتب إليه، إذا هو تأخّر عن مراسلته، يسأله عن حاله وعن سبب انقطاعه عنه، ولعله كان يرى في محمود خليفته الذي يحمل من بعده لواء التبشير بمذهبه في الفكر والأدب، والمناضلة عن هذا المذهب.

والواقع أنه من الطبيعي أن تنشأ هذه العلاقة الحميمة بينهما، وأن يكون الرافعي أحبّ الكتّاب إلى قلب محمود؛ لأن ثمة أسباباً جمة تجذبه إليه «من أخوة في الله، ومن صداقة في الحب، ومن مذهبٍ متفقٍ في الروح، ومن نيّةٍ معروفةٍ في الفن، ومن إعجابٍ قائمٍ في البيان»(٢).

وليس من ريبٍ أن لهذه العلاقة دوراً كبيراً في علاقة محمود بطه حسين، التي كانت على النقيض من علاقته بالرافعي ملؤها الخلاف والجدل، والتي كان لها أعظم الأثر في حياة محمود الشخصية والأدبية.

ومن الجدير بالذكر أن الرافعي كان على خلافٍ حادٍّ مع طه حسين، وهو خلافٌ قديم الجذور، ربما يرتد إلى سنة ١٩١٣م، وقد اشتمل على معظم قضايا الصراع بين «القديم والجديد»، الذي كان مشتعلاً بين الأدباء والنقاد في تلك الفترة، كاللغة والأدب والدين والنقد والمنهج والأسلوب، وغير ذلك(٣).

ومثلما أثّرت تلمذته للرافعي في علاقته بطه حسين، فقد أثرت كذلك في صلته بعبّاس محمود العقّاد، ومن المعلوم أن ثمة صراعاً عنيفاً كان بين الرافعي والعقاد، ربما تحور بداياته الأولى إلى سنة ١٩١٤م. وقد ظلّ إلى أن قضى الرافعي، ولعل من الطبيعي أن ينشب الصراع بين هذين الأديبين؛ بسبب ما بينهما من التباين البيّن في طبيعة المزاج،

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ج٣، ص: ٣٩٧-٣٩٨.

(٢) محمود محمد شاكر، «وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي، ص: ٢٥١.

(٣) انظر تفاصيل هذا الخلاف في: محمد سعيد العربان، حياة الرافعي، ص: ١٥١-١٦٧، وسامح كريم، معارك طه حسين الأدبية والفكرية، ط٢، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧، ص: ٢٩٧-٣٠٠.

والتكوين الثقافي، والمنافسة، وسوى ذلك من دوافع الصراع الكثيرة[1].

فعلى الرغم من حب محمود للعقاد، وأنه كثيراً ما كان يلتقي به ويسلم عليه، حيث كانا يسكنان مصر الجديدة، إلا أن العقاد، فيما يقول محمود، كان يجفوه وينقبض عنه حديثه، إذا هو حدثه، بسبب ما يعرفه من علاقته بالرافعي[2].

وإذا كان النزاع بين الرافعي والعقاد، قد انتهى، كما أشرت آنفاً، بوفاة الأول، فإنه سرعان ما عاد من جديد، على صفحات مجلة «الرسالة»، بين تلاميذهما وأنصارهما، واستمر قرابة ثمانية أشهر: من ٢٥ ابريل إلى ١٤ نوفمبر ١٩٣٨م[3].

وقد كان محمود أول من نهد للرد على سيد قطب الذي راح يحطّ من منزلة الرافعي الأدبية والنقدية، ويعلي من شأن أستاذه العقاد[4]، وذلك في معرض رده على ما كتبه محمد سعيد العُريان عن المعركة النقدية التي دارت بين الرافعي والعقاد حول ديوان الأخير «وحي الأربعين» حين امتدح العريان نقد الرافعي، ووصف ردَّ العقاد عليه بأنه سبابٌ وشتائم[5]، في مقالاته التي كان ينشرها تباعاً في «الرسالة» عن الرافعي، عُقيب وفاته، والتي ضمها فيما بعد كتابه «حياة الرافعي». وقد ذهب محمود إلى تأييد الرافعي فيما أخذه على شعر العقاد، مبيناً أن الرافعي كان يذهب في نقده مذهب العربي حين يسمع الكلام العربي لا ينحرف بألفاظه إلى غير معانيها، ولا يتسع في معاني الألفاظ بغير دلالة ظاهرةٍ أو مسوّغ مضمرٍ، ولا يقبض من معانيها إلا بمثل ذلك مما يجيز انقباض بعض معاني اللفظ عن سائره. كما ذهب محمود إلى تأكيد ما قاله العريان بشأن رد العقاد على الرافعي، فهو لا

---

(١) انظر تفاصيل الصراع بين الرافعي والعقاد في: محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، ص: ١٨٥ - ٢٠٣، وعامر العقاد، معارك العقاد الأدبية، المكتبة العصرية، بيروت - صيدا، ص: ٨-١٦.

(٢) انظر: محمود محمد شاكر، المتنبي، ص: ٧٧.

(٣) انظر: أنور الجندي، المعارك الأدبية في مصر منذ ١٩١٤م - ١٩٣٩م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص: ٢٦٤-٢٨٨.

(٤) انظر: سيد قطب، بين العقاد والرافعي، الرسالة، العدد ٢٥١، ٢٥ أبريل ١٩٣٨، ص: ٦٩٢ و٢٥٢، ٢ مايو ١٩٣٨م، ص: ٧٣٢ و٢٥٤، ١٦ مايو ١٩٣٨م، ص: ٨١٣ و٢٥٥، ٢٣ مايو ١٩٣٨م، ص: ٨٥٤.

(٥) انظر: محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، ص: ١٩٦ - ٢٠٥.

يمكن، كما يقول، أن يقال فيه إلا ذلك، إذ ليس فيه شيءٌ مما يسوغ أن يعد رداً أو نقداً[1].

ومن السهل أن نتبين أن الخلاف بين محمود وقطب لم يكن إلا امتداداً للخلاف القديم بين الرافعي والعقاد، فقد راح كل واحدٍ منهما يطري أستاذه، ويجلّي مذهبه في الأدب والنقد، موجهاً، في الوقت عينه، التهم والعيوب إلى خصمه، وإذا كان سيد يعنون مقالاته «بين العقاد والرافعي»، مقدماً أستاذه، فقد راح محمود، في مقابل ذلك يعنون مقالاته «بين الرافعي والعقاد»، مقدماً هو الآخر أستاذه.

وقد كان الرافعي أول من أبدى إعجابه بكتاب «المتنبي» لمحمود، وهو أول كتاب يؤلفه[2]، وتنبه لمنهجه المتميز في دراسة الشاعر وشعره، وهو ما شرحه فيما بعد وأسماه منهج «التذوق»، وذلك في مقالةٍ له نشرها في مجلة «الرسالة» تحت عنوان «المقتطف والمتنبي»، ومما قاله فيها: «كان الرجل (يقصد المتنبي) مطوياً على سرٍّ ألقي الغموض فيه من أول تاريخه (يعني علوية المتنبي التي يقول بها محمود)، وهو سر شعره وسر قوته... ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف، فجاء بحثه يتحدر من نسقٍ عجيب، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادةٌ ونموٌّ وشبابٌ، وعرض بين ذلك شعر المتنبي عرضاً خُيِّل إليَّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها»[3].

وقد كان وقع هذا المقالة على محمود كبيراً، فكان يقرؤها مرةً بعد مرةٍ، فَرِحاً بثناء الرافعي عليه، وبوصفه الدقيق لمنهجه في دراسة الشاعر وشعره، مما جعله يواصل المضي فيه، مقتنعاً أشد الاقتناع بصحته وسلامته، لأنه استطاع أن يحقق به التولّج إلى سر نفس أبي الطيب وسر شعره، واستطاع به كذلك أن يكتب بحثاً «يتحدر في نسق عجيب، متسلسلاً بالتاريخ، كأنه ولادةٌ ونموٌّ وشبابٌ»، على حد تعبير الرافعي.

---

(1) انظر: محمود محمد شاكر، بين الرافعي والعقاد، الرسالة، العدد ٢٥٣، ٩ مايو ١٩٣٨م، ص: ٧٨١، و٢٥٤، ١٦ مايو ١٩٣٨م، ص: ٨٠٨ و٢٥٥، ٢٣ مايو ١٩٣٨م، ص: ٨٥١ و٢٥٦، ٣٠ مايو ١٩٣٨م، ص: ٩٠٢. و٢٥٧، ٦ يونيو ١٩٣٨م، ص: ٩٣٣.

(2) نُشر في عدد خاصٍّ من مجلة «المقتطف»، في يناير سنة ١٩٣٦م.

(3) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ج٣، ص: ٣٧٠.

وليس من ريب أن محموداً قد أفاد كثيراً من أستاذه الرافعي ، وخاصة في تلمّس الجذور الأولى لمنهج «التذوق» ، إذ لا نجد كبير عناء في تبين هذه الجذور مبثوثة هنا وثمة في كتب الرافعي ، من مثل : «تاريخ آداب العرب» ، و «تحت راية القرآن» ، و «على السفّود» ، وسواها .

ترتبط حياة محمود شاكر الجامعية ارتباطاً متيناً بأستاذه طه حسين ، بدءاً من التحاقه بكلية الآداب في الجامعة المصرية ، وحتى مفارقته إياها ، قبل أن يتم دراسته فيها ، على إثر خلاف حاد مع أستاذه حول الشعر الجاهلي ، ومنهج البحث فيه .

فحينما دخل محمود الجامعة سنة ١٩٢٦م ، وآثر متابعة دراسته في قسم اللغة العربية ، لم يكن من السهل أن يتم له ذلك ، وهو يحمل بكالوريا القسم العلمي ؛ إذ كانت قوانين الجامعة آنذاك لا تسمح بذلك ، فكان طه حسين هو السبب في قبوله في كلية الآداب ، إذ استطاع أن يزيل هذا العائق بشهادته له أمام مدير الجامعة ، وهو أحمد لطفي السيد في ذلك

---

(١) مصطفى نعمان البدري ، الإمام مصطفى صادق الرافعي ، ص : ١٥-١٦ (المقدمة ، بقلم محمد بهجت الأثري) .

الوقت، وبإصراره على أن يواصل دراسته في ميدان الأدب[1].

وتجدر الإشارة إلى أن معرفة محمود بطه حسين قد نشأت قبل دخوله الجامعة، وربما ترجع إلى سنة ١٩٢٤م، عندما بدأ يقرأ له ما كان ينشره في صحيفة «السياسة» من «حديث الأربعاء»، إذ تاقت، فيما يقول، نفسه إليه، «فسعيت إليه سعياً، وعرفته من يومئذٍ عن قرب، كنت صغيراً، وكان هو في نحو الخامسة والثلاثين، ومع هذا التفاوت في السن، فقد قربني الرجل إليه حتى اطمأن قلبي، وانطلق لساني، فبجرأة الشباب كنت أخالفه أحياناً كثيرة فيما يكتب، وبجهل الشباب أيضاً أحاوره وأجادله بقليل علمي»[2].

فلما التحق محمود بقسم اللغة العربية، وبدأ يُصغي إلى محاضرات طه حسين التي عرفت بكتاب «في الشعر الجاهلي» والتي ينتهي فيها إلى الشك في هذا الشعر، أخذ الخلاف بينه وبين أستاذه يربو يوماً بعد يومٍ، ويرجع ذلك إلى أمرين: أما أحدهما، فهو ما كان قد توصل إليه محمود، أيام قراءته على شيخه المرصفي، حين أخذه النهم بالشعر الجاهلي، من أن ثمة طبيعة خاصة تميز الشعر الجاهلي عامة، وتفرقه عن الشعر الأموي والشعر العباسي، وأما الآخر، فهو قراءته لمقالة المستشرق مرجوليوث «نشأة الشعر العربي» عند صدورها في سنة ١٩٢٥م، وذلك قبل دخوله الجامعة، والتي يحاول فيها مرجوليوث الشك في صحة الشعر الجاهلي، مرجّحاً أنه موضوع بعد نزول القرآن، صنعه الرواة المسلمون، ونسبوه إلى الجاهليين[3].

فقد بدأ الخلاف عندما شرع محمود، أثناء مناقشاته لأستاذه في قاعة الدرس، يدلل على أن الذي يقوله طه حسين عن «المنهج» وعن «الشك» غامضٌ، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت، وأن تطبيق منهجه هذا يعتمد على التسليم تسليماً لم يداخله الشك، بروايات في الكتب هي في ذاتها، يحوطها الشك، داعياً إلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلي والأموي والعباسي قراءة متذوقة مستوعبة، ليظهر الفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي، قبل

---

(١) انظر: محمود محمد شاكر، المتنبي، ص: ١٥.

(٢) محمود محمد شاكر، المتنبي ليتني ما عرفته (١)، ص: ٨.

(٣) انظر: ديفد صوميل مرجوليوث، نشأة الشعر العربي، في: عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص: ٧٨-١٢٩.

الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية، أو التماس الشُبه للحكم عليه بأنه باطل النسبة، وأنه موضوع في الإسلام. ثم تفاقم الخلاف عندما تناهى لطه حسين ما كان يبثه محمود بين زملائه من أن كل ما قاله أستاذه في محاضراته ليس إلا (سطوا) واضحاً على مقالة مرجوليوث، السالفة الذكر، بعد حذف الحجج الواهية، والأمثلة الدالة على الجهل باللغة العربية، التي كانت تتخلل كلام المستشرق، وأن ما يقوله لا يزيد على أن يكون تعليقاً على هذه المقالة(١).

مما أدى ذلك كله إلى إيثار محمود في سنة ١٩٢٨م ترك الجامعة[1]، وهو لا يزال طالباً في السنة الثانية[2]، غير مبال بإكمال دراسته، بعد أن عقد النية على الهجرة إلى جزيرة العرب، طالباً للعزلة، حتى يستبين لنفسه، فيما يقول، وجه الحقيقة في «قضية الشعر الجاهلي»، هذا على الرغم من تدخل عدد من أساتذته، ولا سيما من المستشرقين، ككارلو نلينو، وجودي، وغيرهما، ومما قاله محمود لنلّينو عندما زاره في بيته، مع عدد من الأساتذة في دار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعي، وفي الأزهر، من أجل أن يصرفه عن السفر، ويحثه على الرجوع إلى الجامعة، بعد أن أومأ، أمام والده، إلى تهوره ومخاطرته بمستقبله: «أنت

تعلم أني بقيت في الجامعة سنتين لم أبرح، وتعلم ما كنت أقوله عن «مسألة الشعر الجاهلي» التي نسمعها في محاضرات الدكتور طه، وأن هذا الذي نسمعه ليس إلا «سطواً» مجرداً على مقالة مرجوليوث، وأنت وجميع الأساتذة تعلمون صحة ذلك، وفي خلال السنة الماضية، نشرت كتب ومقالات في الصحف تكشف ذلك أبين كشف، ولكن لم يكن لهذا الكشف عندكم في الجامعة صدىً إلا الصمت، فهذا الصمت إقرار من الجامعة وأساتذتها بهذا المبدأ، مبدأ «السطو»، قد مضت عليّ سنتان صابراً، أما الآن، فلم أعد قادراً على التوفيق بين معنى «الجامعة» في نفسي، وبين هذا المبدأ الذي أقررتموه، فتقوض معنى «الجامعة» وأصبح حطاماً، فكيف تطالبونني بأن أعيش سنوات أخرى بين الحطام والأنقاض؟»(١).

ومن المفيد أن أوضح هاهنا علاقة محمود القوية بأساتذته المستشرقين الألى كانوا يدرّسونه في الجامعة، وخاصة نلّينو، الذي كان يتوسط بينه وبين طه حسين، ويظهر حرصاً زائداً على أن يستمر محمود في دراسته الجامعية، ويبدو لي أن ذلك له علاقة بارتباط محمود، وهو طالب في الجامعة، بما سمي «جمعية الشبان المسلمين» ومعرفته بمحب الدين الخطيب، منشئ مجلتي «الفتح» و«الزهراء».

يُعدّ محب الدين الخطيب أول من فكر في إنشاء جميعة للشبان المسلمين على غرار «جمعية الشبان المسيحية»، وهي إحدى المؤسسات التبشيرية، ولا سيما بعد أن رأى، في ذلك الوقت، تزايد نشاطها في دعوة المعادين للإسلام لإلقاء بعض المحاضرات في دارها، فعرض الأمر على مجموعة من الشيوخ والشبان ممن كانوا يختلفون إلى مكتبته، «المكتبة السلفية»، وعلى رأسهم: محمد الخضر حسين، وأحمد تيمور باشا، وعبد السلام هارون، وكان إذ ذاك طالباً بتجهيزية دار العلوم، ومحمود شاكر، فلاقى استحسانهم وحماستهم، فشرع الشباب بالدعوة إليها بين زملائهم في الجامعات والمدارس وغيرها، وقد كان لمحمود دور كبير في بث فكرة هذه الجمعية بين زملائه الطلبة في الجامعة المصرية، وتشجيعهم للالتفات حولها، والمساهمة في إبرازها إلى حيز الوجود، حتى كان الإعلان عنها في

---

(١) محمود محمد شاكر، المتنبي ليتني ما عرفته (١)، ص: ١١-١٢.

اجتماع عام في ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧م، تم فيه إقرار القانون الإساسي للجمعية، وانتخاب مجلسها الإداري(١).

وتنحصر أغراض «جمعية الشبان المسلمين»، كما أوضح ذلك القانون الأساسي لها، بما يأتي:

- بث الآداب الإسلامية والأخلاق الفاضلة.
- السعي لإنارة الأفكار على طريقة تناسب روح العصر.
- العمل لإزالة الخلاف أو الجفاء بين الطوائف والفرق الإسلامية.
- الأخذ من حضارتي الشرق والغرب بمحاسنهما جميعاً، وترك ما فيهما من مساوئ.

وما يهمنا هنا في هذا السياق ما جاء في «اللائحة الداخلية» لهذه الجمعية، التي تضمن تفصيل ما أجمله قانونها الأساسي، مما يتصل بأعمال «اللجنة العلمية»، التي كان محمود، على أغلب الظن، واحداً من أبرز أعضائها، حيث كان على رأس اهتماماتها: درس أغراض المستشرقين في كتبهم ومجلاتهم وجمعياتهم ومؤتمراتهم، ولا سيما ما يتعلق من ذلك بالشرق والإسلام، وإذاعة ما فيها من مفيد والتنبيه على ما فيها من باطل(٢).

ولعل هذا ما يفسر لنا، في هذه الفترة، اهتمام محمود بتلخيص محاضرات أستاذه المستشرق نلينو التي كان يلقيها في الجامعة المصرية عن تاريخ اليمن القديم، ونشر أجزاء منها في مجلة «الزهراء»، التي كان يفسح له فيها محب الدين الخطيب مساحات شادحة لنشر ما يكتبه سماعاً عن نلينو.

وكان أول ما نشره محمود من ذلك أسماء الأوروبيين الذين ارتادوا اليمن لدرس تاريخها

---

(١) انظر: محمود محمد شاكر، جمعية الشبان المسلمين، الفتح، العدد ٤٠١، ٢٩ يونيه ١٩٣٤م، ص: ٧-٩، وعلي الطنطاوي، ذكريات، ط١، دار المنارة للنشر، السعودية- جدة، ١٩٨٥م، ج١، ص: ٢٦١، وسعد فوز مناور، محب الدين الخطيب: أفكاره وجهوده في الإصلاح الإسلامي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م، ص: ١٩٢-١٩٤.

(٢) انظر: جمعية الشبان المسلمين، جمعية الشبان المسلمين والأغراض العلمية التي ترمي إليها، الفتح، العدد ١١١، ٣٠ أغسطس ١٩٢٨م، ص: ١٦٥.

في الماضي والحاضر(١) ، وهي المقدمة التي افتتح بها نلينو محاضراته . ويظهر أن محموداً لم يُطلع أستاذه على نية نشره ما يلخصه من هذه المحاضرات التي يذيعها على طلبته ؛ إذ كان همّه أن يحقق ما أمكنه من هذه الأغراض التي ترمي إليها «جمعية الشبان المسلمين» ، إلا أن عمله لقي من أستاذه استحساناً ورضىً ، ولا سيما بعد قراءته للجزء الأول مما نُشر .

ففي نهاية الجزء الثاني الذي نشره محمود من محاضرات أستاذه ، وعنوانه «المشتغلون بدرس الآثار اليمنية»(٢) ، كتب محب الدين الخطيب ، مستدركاً : «بدأنا في الجزء الماضي بنشر المعلومات التي يلقيها العلامة المحقق الأستاذ كارلو نالينو . . . على طلبة الجامعة ، واعتمدنا في نشرها على المذكرات التي يكتبها صديقنا السيد محمود محمد شاكر سماعاً من الأستاذ ، ولما اطلع الأستاذ على ما نشر من محاضراته في الزهراء ، وقع ذلك منه موقع الرضا ، وكلّف نفسه مهمة الاطلاع على ما سننشره قبل نشره تفادياً من وقوع الخطأ في الأعلام وغيرها ، وكتب لنا بخطه استدراكاً لما وقع من ذلك فيما نشر في الجزء الماضي ، ولم يطلع عليه قبل نشره»(٣) .

ومن هنا ، فيما أرى ، أخذت تتوطد العلاقة بين محمود ونلينو ، ويكثر اللقاء بينهما ، فكان الأستاذ حريصاً جداً على تلميذه ، يُدنيه منه ، ويحوطه برعايته وعنايته ، حتى إذا ما احتدم الخلاف بينه وبين أستاذه طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي ، وأزمع على مفارقة الجامعة ، بل مفارقة مصر كلها ، كان نلينو في طليعة الساعين للصلح بينهما ، ومنع محمود من السفر ، وإقناعه بأن يعود إلى الجامعة ، وإن كانت جهوده ، بطبيعة الحال ، قد ذهبت أدراج الرياح .

بعد الجامعة . .

طفق محمود شاكر يعدّ العدّة للرحلة إلى الجزيرة العربية ، وليس يخفى أن اصطفاءه لها مُهاجَراً له ارتباط مكين بقضية الشعر الجاهلي التي كانت قضيته الأولى في هذه الأونة ، ليس

(١) انظر : محمود محمد شاكر ، روّاد اليمن من الأوروبيين ، الزهراء ، المجلد ٣ ، شعبان ١٣٤٥هـ ، ص :٥٠٢-٥٠٩ .

(٢) انظر : محمود محمد شاكر ، المشتغلون بدرس الآثار اليمنية ، من محاضرات العلامة كارلو نلينو في الجامعة المصرية ، الزهراء ، المجلد٣ ، رمضان ١٣٤٥هـ ، ص : ٥٦٢-٥٦٨ .

(٣) محب الدين الخطيب ، استدراك ، نفسه ، ص : ٥٦٩ .

له من همٌّ سوى طلب اليقين فيها ، بعد أن ترافقت عنده بمسألة إعجاز القرآن[1] ، فهي أرض الأجداد الأوائل من ناحية ، وموطن هذا الشعر الجاهلي من ناحية أخرى .

وقد أعانه على ذلك رجل كان قد أطال المقام في مصر ، ثم صار سفيراً للسعودية ، وكان صديقاً لأبيه وإخوته ، وهو الشيخ فوزان السابق ، وكان يعرف محموداً معرفة قوية ، فأسعده في استخراج شهادة الإعفاء من الخدمة العسكرية ، بعد دفع رسوم «البدلية» ، كما أسعده في استخراج جواز سفر ، وفي منتصف سنة ١٩٢٨ ، وصل محمود إلى مدينة جُدة ، ومنها انطلق إلى مكة المكرمة ، لأداء مناسك العمرة ، وبعد أيام عاد إلى جُدّة ، ليستقر فيها[2] .

وقد أنشأ هناك ، بناء على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود ، مدرسة جُدة الابتدائية ، وعمل مديراً لها ، وتتلمذ له في تلك المدرسة عدد من طلبة السعودية ، الذين صاروا أدباء كباراً فيما بعد ، وسجل بعضهم ذلك في مذكراته ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط سنة ١٩٢٩م[3] ، ليستأنف محمود ، على الفور ، رحلة أخرى في أعماق التراث العربي ، بعد أن آثر «العزلة» في بيته ، رافضاً أكثر المناهج الأدبية التي كانت سائدة في زمنه ، بدأها بإعادة قراءة كل ما وقع تحت يده من الشعر العربي ، قراءةً متأنيةً متذوقةً ، ثم قراءة كل ما وقع تحت يده من كتب القدماء : من تفسير للقرآن إلى علوم القرآن على تنوعها ، إلى كتب الحديث النبوي وشروطها ، إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال وجرح والتعديل إلى كتب الفقهاء في الفقه ، إلى كتب أصول الفقه وعلم الكلام ، وكتب الأدب وكتب البلاغة ، وكتب النحو وكتب اللغة ، ثم كتب الملل والنحل ، وكتب التاريخ ، إلى غير ذلك من أبواب العلم الكثيرة[4] .

---

(١) انظر طبيعة فهم محمود للعلاقة بين الشعر الجاهلي وما سمي إعجاز القرآن ، في : محمود محمد شاكر ، فصل في إعجاز القرآن ، في : مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ط٤ ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٧م ، ص : ٤٩٢-٥٣٧ .

(٢) انظر : محمود محمد شاكر ، المتنبي ليتني ما عرفته (١) ، ص : ١١-١٢ .

(٣) انظر : محمود محمد الطناحي ، مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ، ط١ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٨٤م ، ص : ١٠٥ .

(٤) انظر : محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، بضميمة كتابه المتنبي ، ص : ٦-٧ .

وكان أكثر ما يشغله، وهو يطوف في دروب الآداب والعلوم المختلفة، كما يقول، هو الشعر، ثم الشعر الجاهلي، على الخصوص، «ولا غرو فإن بدء التمزق في نفسي، بل في حياتي كلها، إنما انشق عن «محنة الشعر الجاهلي»، وأنا بعدُ فتىً صغيرٌ أخضرُ... فمن حيث لا أدري ولا أتعمد، صارت كل معرفة أكتبها، وكل علم أقتبسه، وكل تجربة أخوضها، وكل إحساس أنتفض له، كأنه رَتْقٌ لهذا الفتق»(1).

كما واصل محمود شاكر اهتمامه بتحقيق التراث وتصحيحه، فكان أن أخرج كتاب «فضل العطاء على العسر» لأبي هلال العسكري، وهو أول كتاب يحققه، وقد نشرته «المطبعة السلفية»، التي كان يملكها محب الدين الخطيب، سنة ١٩٣٢م.

ومما لا شك فيه أن محب الدين الخطيب هو الذي كان يشجعه على تحقيق التراث ونشره، وذلك منذ كان محمود طالباً في الجامعة، يتردد على الخطيب في «دار المطبعة السلفية»، فكثيراً ما كان يوجهه إلى بعض الأعمال النافعة في هذا المجال، أو يطلب منه مساعدته في تحقيق بعض الكتب التراثية وتصحيحها(٥).

والخطيب من أساتذة محمود الذين كان لهم أثر كبير في حياته الثقافية، ولا سيما في أول الشباب، فقد أتاح له أن يطلع على أمهات الكتب والمصادر في شتى ألوان المعرفة، قديمها وحديثها، بل إنه فوق ذلك كان يرعاه، ويأخذ بيده، ويسدد خطاه. وقد أشار محمود إلى طرف من هذا في مجلة «المقتطف» في معرض حديثه عن كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، حيث يقول: «ظهر كتاب «حاضر الإسلامي»(٦) للمرة الأولى سنة ١٣٤٣ من

---

(١) انظر: محمود محمد شاكر، النثر الفني في القرن الرابع، لزكي مبارك، المقتطف، المجلد ٨٤، ابريل ١٩٣٤، ص: ٥١١-٥١٤.

(٢) انظر: محمود محمد شاكر، ديوان عبد المطلب، المقتطف، المجلد ٨٥، يوليو ١٩٣٤، ص: ١١٤-١١٥.

(٣) انظر: محمود محمد شاكر، مفتاح كنوز السنة، لفنسنك، وملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، لدوزي، المقتطف، المجلد ٨٥، اكتوبر ١٩٣٤م، ص: ٢٥٠-٢٥٤.

(٤) انظر: محمود محمد شاكر، الإسلام والحضارة العربية، لمحمد كرد علي، المقتطف، المجلد ٨٦، يناير ١٩٣٥م، ص: ١٠٩-١١٢.

(٥) انظر: محمود محمد شاكر، الناسخون الماسخون، الزهراء، المجلد٤، جمادى الثانية ١٣٤٦هـ، ص: ٢٤٥، ومحمود محمد شاكر، إكمال ثلاثة خروم من كتاب التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، الزهراء، المجلد ٤، شعبان ١٣٤٦هـ، ص: ٣٦٢، ومحمود محمد شاكر، كلمة مودع، الزهراء، المجلد٥، ربيع الأول ١٣٤٧هـ، ص: ٣٣.

(٦) هو من تأليف لوثروب ستودارد، وقد نقله إلى العربية عجاج نويهض، وعلق عليه شكيب أرسلان.

الهجرة ، وكان الشباب يغلي في دمي غليان المرجل ، وكنت أحب أن أتسقط أخبار الأمم الإسلامية ما استطعت ، وكنت أؤمل آمالاً كثيرة يمدها خيالي وتزينها أحلامي ، وكان يقوم على تهذيب نفسي وتشذيب آمالي وأحلامي رجل أحب أن أعترف بفضله عليّ ، وهو الأستاذ محب الدين الخطيب ، الذي طبع كتاب «حاضر العالم الإسلامي» بمطبعته للمرة الأولى ، فكان هذا الأستاذ الجليل أول من هداني إلى قراءة هذا الكتاب وما عليه من تعليقات شيخ الكتّاب الأمير شكيب أرسلان ، واستفدت من تعليقاته عليه أكثر مما استفدته من كل كتاب قرأته إلى هذا اليوم»(1) .

ولكنه سرعان ما يتوقّف عن الكتابة في المجلات والصحف، مؤثراً «العزلة» في بيته ومكتبته، ليتفرّغ لإحياء التراث الإسلامي، وتحقيقه ونشره، بعد إغلاق مجلة «الرسالة» في ٢٣ فبراير ١٩٥٣م؛ لتستمر هذه «العزلة» العلمية أكثر من عشر سنوات، كان من ثمراتها تحقيقه لتفسير الطبري المسمى «جامع البيان عن تأويل القرآن»، وإصداره خمسة عشر مجلداً منه، بالإشتراك مع شقيقه الأكبر الشيخ المحدِّث أحمد محمد شاكر، الذي اضطلع بتخريج الأحاديث النبوية فيه، إلى أن توفي سنة ١٩٥٨م، بعد أن كان قد راجع أحاديث الجزء الثالث عشر، لتقع هذه المهمة فيما بعد على عاتق محمود. كما كان من ثمراتها كذلك شرحه وتحقيقه لكتاب «جمهرة نسب قريش وأخبارها» للزبير بن بكار، وإخراجه الجزء الأول منه. أما خارج نطاق التحقيق، فلم يكتب محمود سوى مقالتين: الأولى بعنوان «أحمد محمد شاكر إمام المحدثين»(٢)، كتبها عُقيب وفاة شقيقه الأكبر، ترجم له فيها، وتحدّث عن مناقبه وجهوده العلمية، والثانية بعنوان «فصل في إعجاز القرآن»(٣)، قدّم بها كتاب «الظاهرة القرآنية»

---

(١) محمود محمد شاكر، فيم أكتب، الرسالة، العدد ١٠١٨، ٥ يناير ١٩٥٣م، ص: ٩.

(٢) انظر: محمود محمد شاكر، أحمد محمد شاكر إمام المحدثين، المجلة، العدد ١٩، يولية ١٩٥٨م، ص: ١١٩-١٢١.

(٣) انظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص: ١٧-٥٠.

الصبور شاهين، بيّن فيها رؤيته للعلاقة بين الشعر الجاهلي وما سمّي إعجاز القرآن.

لصديقه المفكر الجزائري الإسلامي مالك بن نبي، في طبعة الكتاب العربية التي ترجمها عبد

ومنذ مطلع الخمسينات أصبح بيتُ محمود شاكر مثابةً لطلبة العلم والدارسين والمثقفين من كل أرجاء العالم العربي والإسلامي، «وكل الذين كانوا يختلفون إلى بيته ومكتبته هم تلامذة له. كان مجلسه على الدوام عامراً بالناس، وروّاده من جميع الطبقات والفئات، فتجد عنده الأديب والفقيه والقاضي والأستاذ الجامعي والطالب والطبيب والمهندس، وما إلى ذلك... كان بيته مفتوحاً لتلامذته وزوّاره منذ الصباح الباكر حتى ساعات متأخرة من الليل، وإذا ما حضر موعد الإفطار أو الغداء أو العشاء قدم الطعام لكل من في البيت، هذا فضلاً عما يقدمه في خلال ذلك من ضيافة»[(١)].

ولعل من أبرز هؤلاء الذين كانوا يترددون إلى بيته ومكتبته، ويحضرون مجالسه، وينهلون من غزير علمه، على سبيل التمثيل: إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، وعبد الله التل[(٢)]، وأحمد راتب النفاخ، وشاكر الفحام، وأحمد حسن الباقوري، ورجال الثورة المصرية، ما عدا جمال عبد الناصر[(٣)]، وأبو الفضل إبراهيم، وفؤاد السيد، ورشاد عبد المطلب، ومازن المبارك، وعبد الرحمن ياغي، وهاشم ياغي[(٤)]، وغير هؤلاء، وهم من الكثرة.

وقد كان تلامذة محمود شاكر وأصدقاؤه أوفياء له، يهتبلون كل فرصة للاعتراف بفضله، والإشادة به، وتقديم خالص الشكر له، يقول إحسان عباس، على سبيل التمثيل، في سيرته الذاتية: «وكان لقائي به (يقصد شاكراً) فاتحة عهد جديد في حياتي العلمية، كنت أقرأ له شعراً ونثراً في مجلة الرسالة، ولكن اقترابي منه فتح لي عالماً جديداً من المعرفة، أصبحت أجد لديه إجابات متقنةً عن أسئلة كثيرة تدور في رأسي، وعرفت من علمه الغزير أضعاف ما قرأته وما سمعته قبل لقائه، وقد كان بيته «مجمعاً» علمياً لكثيرين

---

(١) من مقابلة مع إحسان عباس.

(٢) انظر: إحسان عباس، غربة الراعي: سيرة ذاتية، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٦م، ص: ٢١١-٢١٢.

(٣) من مقابلة مع إحسان عباس.

(٤) انظر: عبد الرحمن ياغي، ناصر الدين الأسد يدخل محراب النص التراثي، صحيفة «الرأي» الأردنية، العدد ٩٣٧٥، ٣ أيار ١٩٩٦م، ص: ١٢.

من طلاب المعرفة من مصريين ووافدين»(١) ، ويقول ناصر الدين الأسد في مقدمة كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» : «أما أخي الصديق الأستاذ محمود محمد شاكر ، فإن فضله لا يقتصر على هذا البحث وحده ، فلطالما اغترفت من علمه ، وأفدت من مكتبته ، وانتفعت بنصحه وتوجيهه ، وما أكثر ما كان ينفق من وقت يناقش معي فيه وجوه الرأي ، ويبصرني بما لم أكن لأصل إليه لولا غزير علمه وسديد نصحه»(٢) ، ويقول محمد يوسف نجم في مقدمة تحقيقه لديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات : «أما أخي وأستاذي محمود محمد شاكر فإنني لا أطمع في أن أفيه حقه من الشكر والتقدير (. . .) في مقدمةٍ موجزةٍ كهذه ، ولكن ليسمح لي أن أبره ، وقد أدّبني بهذا الأدب ، فأقول إن الفضل الأول في توجيهي إلى دراسة تراثنا القديم والتفرغ له ، بعد انصرافي إلى دراسة الأدب الحديث ، يعود إليه ، وقد كانت دروسه ومجالسه وأماليه المدرسة الأولى التي نهلت من فيض علمها فشقت غرستي وطلعت . كما كان لي من أخوّته الصادقة ووده الصافي وحدبه الدائم خير مشجع وأفضل [illegible] على المضي في هذا السبيل الشائك والضرب في هذا المهمة الغائل . وفضله هناك لا يدانيه سوى فضله هنا ، في هذا الديوان ، فقد تعهده طفلاً وتفضل بقراءته والتعليق عليه وتصويبه»(٣) .

وقد كان شاكر الأستاذ ، في المقابل ، محباً لتلامذته ، حفياً بهم ، وفياً لهم ، مقدراً لجهودهم ، فهو لا يستنكف أن يذكر أحد تلامذته ، وهو أحمد راتب النفّاخ ، فيقول : « . . . صديقي وتلميذي ، وأستاذي فيما بعد»(٤) . ومما يدل على حبه ووفائه لتلامذته كذلك ، هذه الكلمة النبيلة التي سطرها في مقدمة تحقيقه لكتاب «تهذيب الآثار : مسند عمر بن الخطاب» ، وقد جاءه نبأ وفاة أحدهم ، وهو رجب إبراهيم الشحات ، رحمه الله : «إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما كدت أفرغ من كتابة هذه الأسطر السالفة ، حتى جاءني نعي الأستاذ رجب إبراهيم الشحات ، المعيد بجامعة الأزهر ، وهو الذي أبى أن يتركني وحدي في نشر

(١) إحسان عبّاس ، غربة الراعي ، ص : ٢١١-٢١٢ .

(٢) ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، ص : ١٠ .

(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات ، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ص : ٧ .

(٤) محمود محمد شاكر ، المتنبي ، ص : ٥٤ .

كتاب «تهذيب الآثار»، فنسخ لي «مسند عبدالله بن عباس» و«مسند عمر بن الخطاب»، وقرأهما معي على الأصل... كان رحمه الله شاباً نبيل النفس، عفيف اللسان، عزيز الجانب، خفيض الصوت، ليّن العريكة، عالي الهمة، رضي الخلق، محباً للعلم وأهله، أحببته لورعه، وخشيته لربه، وخشوعه في صلاته، ثم لما أجده فيه من الصبر على طلب العلم، وجِده في متابعة التحري للصواب، ومدافعته عن لغته ودينه[1]. هذا، وقد قُدّر لي أن أقرأ نصّ «الإهداء» الذي كتبه شاكر على نسخةٍ من كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» أهداها إلى صديقه وتلميذه ناصر الدين الأسد، بتاريخ ٢١ مارس ١٩٩٦م، فإذا هو: «إلى صداقة عمر لم تتغير ولم تتبدل.. ومحبة لا تبلى»[2]. فهذه الكلمات التي يكتبها شاكرٌ، بعد ما يقرب من نصف قرن من الزمان، إلى أحد تلامذته، هي، بلا شك، من أدلّ شيء على هذه العلاقة المتينة التي تربط بين الأستاذ وتلامذته، مهما تطاولت السنوات، وتباعدت المسافات.

أما عن تعامل شاكر مع تلامذته وجلسائه في بيته، فقد حدثني إحسان عباس، قائلاً: «الأستاذ محمود شاكر مع تلامذته الذين يحبهم إنسان ودود متواضع، على أنه في الحق قوي جداً، لا يلين ولا يجامل، فالحق هو صديقه الذي لا يغضبه بأي حال من الأحوال... حقاً تلمح في تصرفه الشدة والصرامة، وهو غضوب، ولكنه يميز الناس. لقد عاشرته أكثر من عشر سنوات، لم أسمع منه كلمة نابية، إذ كنت أحترم فيه الرجل العالم، على أن هناك من كان يُسيء إليه في أسلوب الحديث والخطاب، فيضيق به[3].

ويقول أحد تلامذته، وهو محمود محمد الطناحي: «وشيخنا في مجلسه طيب ودود، يؤنس جلساءه، ويجعل لكل منهم نصيباً مفروضاً من وده وإقباله، لا يصطنع وقاراً كاذباً،

---

(١) انظر: الطبري، تهذيب الآثار: مسند عمر بن الخطاب، قرأه وخرج أحاديثه أبو فهر محمود محمد شاكر، ص: ١٤-١٥، (مقدمة المحقق).

(٢) قرأت ذلك على مصورة من هذه النسخة يحوزها الأستاذ إبراهيم العجلوني، وبجانبه بخط الدكتور الأسد: «إهداء بخط الأستاذ محمود، وقد اعتذر عما فيه من اضطراب لارتعاش يده، وتاريخه ٢ من ذي القعدة ١٤١٦هـ/٢١ مارس ١٩٩٦م»، ثم أثبت الأسد نص الإهداء بقصد توضيحه.

(٣) من مقابلة مع إحسان عباس.

فيطرب للنادرة المهذبة الحلوة، ويستزيد منها ويرويها. وتجمع مائدته بين الأديب الكبير، والوزير الخطير، والأستاذ الجامعي، والطالب المبتدئ، بل وبعض أصحاب الحرف والمهن الذين لهم بالبيت عُلقة، الكل في مجلسه سواء. وهو حفظه الله يتعهّد أبناءه وتلاميذه، ويمشي في حوائجهم، ويشاركهم سراءهم وضراءهم»(1).

وفي هذه الأونة، وحين ذرّف محمود على الخمسين من عمره، تاقت نفسه إلى الزواج توقاناً، بعد عُزبة طويلة نسبياً، بالنظر إلى موعد الزواج المألوف في مجتمعاتنا العربية، فاقترن بفتاة مصرية اسمها «نعيمة»، وقد رزق منها بولد وبنت، هما «فِهْر» و«زُلفى»(2)، ومنذ ذلك الوقت صارت كنيته «أبو فهر» مرافقةً لاسمه «محمود محمد شاكر» على أكثر ما يؤلفه ويحققه.

ثم يفارق محمود «عزلته» التي ارتضاها لنفسه، والتي انقطع في خلالها عن مراسلة المجلات، والمشاركة فيها، أواخر سنة ١٩٦٤م، حينما ينتصب للرد على لويس عوض الذي كان ينشر يومئذ سلسلةً من المقالات الصحفية في ملحق جريدة «الأهرام» عن أبي العلاء المعري وكتابه «رسالة الغفران» تحت عنوان «على هامش الغفران»(3). وقد استمرت ردود محمود التي كان ينشرها في مجلة «الرسالة» الجديدة، على لويس عوض وغيره من الكتّاب المعاصرين في قضايا أدبية ولغوية ودينية وتاريخية مختلفة، من عدد «الرسالة» ١٠٨٩، ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤م، حتى عددها ١١٢٢، ١٥ يوليو ١٩٦٥م، ليكون الحاصل أربعاً وعشرين مقالة(4).

ثم يخوض محمود في سنة ١٩٦٩م غمار بحث طويل وشاق في الشعر الجاهلي على صفحات مجلة «المجلة» التي كان يُشرف عليها وقتئذ يحيى حقي وشكري عيّاد؛ إذ يتصدى للإجابة على أسئلة كبيرة طرحها الأول حول قراءة القصيدة الجاهلية، وذلك في معرض

---

(1) محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث، ص: ١١١-١١٢.
(2) من مقابلة مع إحسان عبّاس.
(3) انظر هذه المقالات جميعاً في: لويس عوض، على هامش الغفران، سلسلة دار الهلال، العدد ١٨١.
(4) هي التي انضم عليها فيما بعد كتابه «أباطيل وأسمار»، إضافة إلى كلمة أخيرة، لم ينشرها في «الرسالة»، جعلها تحت عنوان «ضفادع في ظلماء الليل». انظر: محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، ص: ٥٥٣.

تعليقه في افتتاحية «المجلة» ، عدد مارس ١٩٦٩م ، على مقالة في هذا العدد لعبد الغفار مكاوي تحت عنوان «جوته والأدب العربي» ، ترجم فيها عن الألمانية ترجمة الشاعر الألماني جوته للقصيدة الجاهلية «إنّ بالشِّعْب الذي دون سلع»(١) ، ومما قاله يحيى حقي : «ما أجدرنا أن نقرأ تراثنا ونفهمه ونهتز له ، كما فعل جوته ، وإنّ صنيعه بقصيدة تأبط شراً يثير مسائل عديدة ، فهو رآها مختلة الترتيب ، واقترح لها ترتيباً جديداً ، ويقول الأستاذ عبد الغفار مكاوي إن في هذا بصراً وشهادة من جوته بافتقار القصيدة العربية لوحدتها ، فالسؤال هو: كيف ، إذا صح أنها فتاتٌ ، أمدته مع ذلك بخيط استطاع بفضله أن يسلك عليه أبياتها في ترتيب منطقي ، أفتكون قصيدة تأبط شراً وصلتنا مختلة الترتيب؟ كيف نظفر ، والقصائد مبعثرة أجزاؤها في مراجع عديدة ، ببعضها الأصلي؟ ما هو المنهج العلمي الواجب اتباعه في هذا البحث؟ وستبقى هذه الأسئلة تنتظر الإجابة عنها»(٢) .

وقد حملت هذه الأسئلة محموداً على كتابة سبع مقالات طوال في منهج قراءة النص الجاهلي عامة ، وقراءة قصيدة «إن بالشعب» خاصة ، وكان ينشر محمود هذه المقالات تحت عنوان «نمط صعب ونمط مخيف»(٣) ، واستمر في نشرها من عدد «المجلة» ١٤٧ ، ابريل ١٩٦٩م ، حتى عددها ١٥٩ ، مارس ١٩٧٠م ، وذلك على فترات متقطعة ، ثم نشرها بين دفتي كتاب سنة ١٩٩٦م ، بعد أن نهض تلميذه محمود إبراهيم الرضواني بنسخها من

---

(١) انظر : عبد الغفار مكاوي . جوته والأدب العربي ، المجلة ، العدد ١٤٧ ، مارس ١٩٦٩م ، ص : ٣٤-٣٥ .

(٢) يحيى حقي ، من إحدى الزوايا : هذا الشعر ، المجلة ، العدد ١٤٧ ، مارس ١٩٦٩م ، ص : ٢-٣ .

(٣) استعار شاكر الشق الأول من عنوان هذه المقالات «نمط صعب» ، كما صرح هو بذلك ، من قول أبي عبيد البكري في كتابه «اللآلي في شرح أمالي القالي» ، وقد ذكر أحد أبيات القصيدة : «اختلف في هذا الشعر ، فقيل إنه لابن أخت تابط شراً . . . وهي قصيدة ، ونمط صعب» . أما الشق الثاني منه «نمط مخيف» ، فيبدو أن قد استعاره من صفة اسم تأبط شراً ، التي خلعها عليه صديقه يحيى حقي ، وذلك في قوله : «فهذا رجل من العرب عاش في الجاهلية ، صعلوك ، اسمه مخيف ، أخذ ذات يوم سيفه تحت إبطه . . .» . وقد ذكر شاكر هذه الصفة بمفتتح المقالة الأولى ، حيث يقول : «فهل يأذن لي يحيى حقي بما أعهده فيه من سماحة النظر ودقة التأمل ، أن أراجعه بعض المراجعة فيما قاله في فاتحة المجلة (عدد مارس ١٩٦٩) ، في شأن صاحب الاسم «المخيف تأبط شراً . . .» . انظر : محمود محمد شاكر ، نمط صعب ، نمط مخيف ، ص : ٨٥ و ٣٣ ، وأبو عبيد البكري ، اللآلي في شرح أمالي القالي ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، دار الحديث ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ج٣ ، ص : ٩١٩ ، ويحيى حقي ، من إحدى الزوايا ، هذا الشعر ، ص : ٢ .

المجلة، وفهرستها فهرسة شاملة، لتقع هذه الدراسة في أكثر من أربعين وأربعمائة صفحة.

ويظهر أن شاكراً قد أصابه عناءٌ كبيرٌ جرّاء تأليفه هذه المقالات، ليؤثر الراحة نسبياً، فانصرف أكثر همّه إلى إعادة النظر فيما سبق أن كتب ونشر، يجمع ما تشعّث، ويستدرك ما فاته، ويعيد طبع ما تم طبعه من قبل، فضلاً عن نشر بعض المقالات في مناسبات مختلفة.

ففي سنة ١٩٧٢م، ارتد شاكر إلى مقالاته التي كان ينشرها في مجلة «الرسالة» الجديدة في نقد لويس عوض وغيره من الكتّاب، وقد سلفت الإشارة إليها، فجمعها وأصدرها جميعاً بين دفتي كتاب أسماه «أباطيل وأسمار»، كما أخرج الطبعة الثانية من ديوانه «القوس العذراء»(١)، وفي سنة ١٩٧٤م أعاد النظر في تحقيقه لكتاب «طبقات فحول الشعراء»، فأصدر طبعة جديدة منه صحح فيها بعض أخطاء النسخ التي وقعت في الطبعة الأولى، وكان مما قاله في مقدمة هذه الطبعة الجديدة: «... ومن أجل هذا، فأنا لا أُحلّ لأحد من أهل العلم أن يعتمد بعد اليوم على الطبعة الأولى من «طبقات فحول الشعراء»، مخافة أن يقع بي في زلل لا أرضاه له، وأضرع إلى كل من نقل عن هذه الطبعة شيئاً في كتاب، سواء كان قد نسبه إليّ أو لم ينسبه، أن يراجعه على هذه الطبعة الجديدة، من الطبقات، لينفي عن نفسه وعمله العيب، الذي احتملت أنا وحدي وزره»(٢).

وفي سنة ١٩٧٥م دعت جامعة الإمام محمد بن سعود بمدينة الرياض شاكراً ليحاضر فيها، فلبى دعوتها، وألقى على طلبتها مجموعة من المحاضرات عن الشعر الجاهلي، وقد نشر هذه المحاضرات فيما بعد حمد الجاسر في مجلته «العرب»(٣)، وقد قدّم لها بقوله: «دعت (جامعة الإمام محمد بن سعود) أستاذنا العلامة الجليل أبا فهر محمود بن محمد شاكر ليحاضر طلابها، فألقى هذه المحاضرة الممتعة حقاً، المستوفية لإيضاح كثير من الجوانب التي يعوز الباحثين، في هذا العصر، إيضاحها عن الشعر الجاهلي، وقد كرم أحد أصدقاء أستاذنا

---

(١) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٤م.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م، السفر الأول، ص: ٧٠.

(٣) انظر: محمود محمد شاكر، الشعر الجاهلي (١)، العرب، ج٥ و٦، س ١٠، ١٩٧٥م، ص: ٣٢١-٣٩١، ومحمود محمد شاكر، الشعر الجاهلي (٢)، العرب، ج٧و٨، س ١٠، ١٩٧٥م، ص: ٤٩٢-٥٣٧.

بإتحاف مجلة «العرب» بنسخة من تلك المحاضرة، ويسر المجلة أن تفتتح بالقسم الأول منها هذا الجزء، وأن توالي نشر بقيتها، وسيجد فيها القراء ولا سيما من يُعنى بدراسة الشعر العربي القديم من الإمتاع والفائدة واستيفاء جوانب الموضوع ما لا داعي معه إلى الاسترسال في الحديث عنها»[1].

وفي سنة ١٩٧٧م يُصدر محمود طبعة ثانية من كتابه «المتنبي» وقد جاءت هذه الطبعة الجديدة في سفرين كبيرين: اشتمل أولهما على مقدمة ضافية سماها «قصة هذا الكتاب: لمحة من فساد حياتنا الأدبية»، ثم كتاب «المتنبي» القديم الذي ظهر سنة ١٩٣٦م في عدد كامل في «المقتطف»، أما السفر الآخر، فقد حشد فيه مقالاته «بيني وبين طه» في نقد كتاب طه حسين «مع المتنبي» التي نشرها في «البلاغ» سنة ١٩٣٧، وما دار بينه وبين سعيد الأفغاني حول «نبوة المتنبي» على صفحات «الرسالة» في سنة ١٩٣٦م، بالإضافة إلى ثلاث تراجم قديمة للمتنبي، لما تنشر، كتبها ابن العديم، وابن عساكر، والمقريزي.

وقد حركت هذه الطبعة الجديدة أقلام عدد من النقاد والدارسين، ومن أبرز هؤلاء عبد العزيز الدسوقي، فقد كتب في نقدها ومناقشتها خمس مقالات في مجلة «الثقافة»[2] المصرية، تناول فيها بعض القضايا الفنية والفكرية التي أثارها الكتاب، مركزاً على ما كان بين شاكر وطه حسين حول أبي الطيب المتنبي.

وقد رد شاكر عليه بثلاث مقالات طوال نشرها في المجلة نفسها تحت عنوان «المتنبي... ليتني ما عرفته»[3]، وضح في المقالة الأولى طبيعة علاقته بأستاذه طه حسين، وكشف في

---

(١) محمود محمد شاكر، الشعر الجاهلي (١)، ص: ٣٢١ (تصدير المجلة).

(٢) انظر: عبد العزيز الدسوقي، المتنبي بين محمود شاكر وطه حسين، الثقافة، العدد ٥٢، يناير ١٩٧٨م، ص: ٦٥-٧١، و٥٣، فبراير ١٩٧٨م، ص: ٥٥-٦١، وقضية التذوق بين شاكر وطه حسين، العدد ٥٤، مارس ١٩٧٨م، ص: ٥٠-٥٤، والمتنبي بين محمود وشاكر وطه حسين، العدد ٥٦، مايو ١٩٧٨م، ص: ٥٩-٦٤، و٥٧، يوليو ١٩٧٨م، ص: ٢٨-٣٠.

(٣) انظر: محمود محمد شاكر، المتنبي ليتني ما عرفته، الثقافة، العدد ٦٠، سبتمبر ١٩٧٨م، ص: ٤-١٩، و٦١، اكتوبر ١٩٧٨م، ص: ٤-١٨، و٦٣، ديسمبر ١٩٧٨م، ص: ٤-١٧. وتجدر الإشارة إلى أن عنوان هذه المقالات قد جاء ضمن المقالة الثالثة، وذلك في قوله: «وأنا في خلوتي لم أفطم قط نفسي [عن] شيء من النظر والاستنباط... كان الأمر مقصوراً على الخلوة، فالآن هرت إلى العلانية. من الذي أضل خطاي فأخرجني من خلوتي؟ المتنبي؟ ليتني ما عرفته! ولكن، ما جدوى التمني! لا بد مما ليس منه بدّ» (ص: ٥).

المقالتين الأخريين عن مفهومه «التذوق الشعر».

ومنذ مطلع الثمانينات بدأ شاكر ينال ما يستحقه من اهتمام وتكريم على المستوى الرسمي، فانتخب في سنة ١٩٨٠م، عضواً مراسلاً في «مجمع اللغة العربية بدمشق»، كما كرّمته الدولة في العام التالي فأهدته «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» عن عام ١٩٨١م، تقديراً لجهوده وإسهاماته المتعددة في خدمة تراث الإسلام، ودرايته الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد تسلم الجائزة في احتفال أقيم مساء يوم الثلاثاء ٢٩ يونية ١٩٨٢م[1]، وفي هذه السنة أيضاً تم انتخابه عضواً في «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة[2]، كما أصدر تلامذته ومحبوه كتاب تكريم له بمناسبة بلوغه السبعين في سنة ١٩٧٩م أسموه «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ١٩٠٩-١٩٧٩م»، شارك فيه عددٌ كبيرٌ من كبار النقاد والباحثين في الوطن العربي، أذكر منهم، على سبيل التمثيل: إحسان عباس ومحمد حسن عواد من الأردن، وإحسان النص من سوريا، وعبد الله الطيب من السودان، ومحمد يوسف نجم من فلسطين، وأحمد مختار عمر وحسين نصار ورمضان عبد التواب ومحمد مصطفى هدارة ومحمود علي مكي من مصر، وغيرهم.

وفي أواخر سنة ١٩٨٣م، تقرر منح شاكر «جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي»، وذلك تقديراً لإسهاماته القيمة في مجال الدراسات التي تناولت الأدب العربي القديم والمثلة في:

- تأليفه كتاب «المتنبي» سنة ١٩٣٦م، الذي حمل كثيراً من القيم العلمية والأدبية العالية، منها: التعمق في الدراسة والجهد والاستقصاء، والقدرة على الاستنتاج والدقة في التذوق، والربط المحكم بين الشعر وأحداث الحياة، والكشف عن ذلك في تطور أساليب المتنبي.

---

(١) انظر: محمد رشاد سالم (وأصحابه)، دراسات عربية وإسلامية، ص: ١٧.

(٢) انظر: محمود ابراهيم الرضواني، شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق، ط١، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٥م، ص: ٣١.

- الآفاق العلمية الجادة التي ارتادها، وما كان من فضله على الدراسات الأدبية والفكرية، وعلى الحياة الثقافية والتراث الإسلامي.

- مواقفه العامة، وتحقيقاته ومؤلفاته الأخرى التي ترتفع به إلى مستوىً عالٍ من التقدير.

وتسلَّم الجائزة في حفل أقيم بمدينة الرياض في ٢٥ فبراير ١٩٨٤م، وقد ألقى فيه كلمة وجيزة أبان فيها عن عميق شكره وتقديره للقائمين على هذ الجائزة[١].

ولقد ظل شاكرٌ على رغم تقدم السن وثيق الصلة بالقراءة والإفادة، وبقيت ذاكرته تقتنص الشاردة والواردة[٢]. يقول أحد تلامذته: سألني ذات يوم قريب، ونحن على مائدة الغداء في بيته، عما صنعته بكتاب الشعر لأبي علي الفارسي، فقلت له: إني مشتغل بتخريج شواهده، ولكن أبا علي، يجتزئ أحياناً من البيت بموضع الشاهد، وهذا محوج إلى مراجعة كثيرة، فقال لي: ما تذكر من ذلك، فقلت: قوله: «ذلَّ الزمان لهم» فقال: إني أعرفه. ثم قام وشرد ببصره، ومسح على جبهته، كحالته إذا أهمّه أمر. وما هي إلا دقائق يسيرة حتى استخرجه من الجزء الأول من الأغاني، بيتاً سوياً، هو:

لهفي على فتيةٍ ذلَّ الزمان لهمْ　　فما أصابهمُ إلا بما شاءوا

ثم أضاء وجهه وتلألأ، وأخذ يقول: الحمد لله، هذه قراءة خمسين عاماً مضت[٣].

وجديرٌ بالذكر أن شاكراً قد ترك غير واحد من الأعمال التي لم يكتمل إنجازها في مجال التأليف والتحقيق مما أشار إليه في بعض المواطن، ومن ذلك: «كتاب

---

(١) انظر: صورة براءة الجائزة ونص الكلمة التي ألقاها في: محمود محمد شاكر، المتنبي، ص: ١٥٧-١٦٣.

(٢) انظر: محمود محمد الطناحي، مدخل إلى تاريخ نشر التراث، ص: ١١٤.

(٣) نفسه، ص: ١١٤-١١٥.

الشعر» ، وبقية «تفسير الطبري» ، وبقية «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار[1] ، و«مداخل إعجاز القرآن»[2] ، و«علم العروض»[3] .